

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة سبحان

وهي مكية

روى الإمام البخارى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الاول وهن من تлады (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل»، و«الزمر» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزُرَيْمٍ مِّن مَّائِينَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدوته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمدا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذى يبلياء، معدن الانبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأتمهم فى محلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الاعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم اجمعين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لَيْلًا﴾ أى: محمداً ﴿مِن مَّائِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه. وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصلقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «آتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فصار بى حتى آتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الانبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه] (٣) ففتح لنا، فإذا أنا بأدم، فرحب بى ودعا لى بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل:

(٢) المسند (٦ / ١٨٩) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه (١١٦٣) .

(١) البخارى (٤٧٠٨) .

(٣) ماقطة من المخطوطة ، وأثبتناها من المطبوعة والمسند .

ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم يقول الله: ﴿وَرَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى الله إلي ما أوحى، وفرض عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى. قال: ما فرض ربك على أمّتك؟» قال: «قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك! فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال: «فرجعت إلى ربي، فقلت: أي رب، خفف عن أمّتي، فحطّ عنّي خمساً. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطّ عنّي خمساً. قال: إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك» قال: «فلم أزل أراجع بين ربي وبين موسى، ويحطّ عنّي خمساً خمساً حتى قال: يا محمد، هي خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فآخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإن أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت». ورواه مسلم، وهو أصح من سياق شريك^(١). قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس. وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط أكبرم علي الله منه. قال:

فأرض عرقاً . ورواه الترمذى وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه (١)
رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم - وربما قال قتادة: فى الحجر - مضطجعاً إذ أتانى أت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتانى فقد - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرته قال: «فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجرىء جاء». قال: «ففتح فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجرىء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فلم عليهما». قال: «فسلمت فردا السلام ثم قال: مرحباً بالاخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجرىء جاء». قال: «ففتح لنا فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف» قال: فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالاخ الصالح والنبى الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجرىء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس فلم عليه». قال: «فسلمت عليه». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجرىء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فلم عليه». قال: «فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالاخ والنبى الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجرىء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى، عليه السلام، فلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالاخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له:

مايكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى». قال: «ثم سعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح». قال: «ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال: «ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يمدون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فتزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال: «فقلت: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ فقلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بم أمرت؟ فقلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: قد سألت ربي حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فناداني مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي». وأخرجاه في الصحيحين، بنحوه (١).

رواية أنس عن أبي ذر:

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف

بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فمرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء، قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودَةٌ وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح. قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى ابن مريم. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم. قال الزهري: فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فقرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فأرجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: أرجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: [أرجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت] فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: أرجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»^(١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألت. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته نوراً أنى أراه». هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»^(٢).

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألت. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً»^(٣).

(٢) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩١).

(١) البخاري (٣٤٩) وما بين المقوفين منه.

(٣) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩٢).

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري:

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: « فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى». قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وإبراهيم، وعيسى، ولم يثبت لى كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والآخر والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والآخر والصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والآخر والصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا جبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقدام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لي موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربي. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحيت من ربي» قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «ففتشها ألوان ما أدري ماهي؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم (١).

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه :

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه في الصحيحين (٢).

(١) المسند (٥ / ١٤٣ ، ١٤٤).

(٢) المسند (٣ / ٣٧٧) والبخارى (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠ / ٢٧٦).

رواية عبد الله بن عباس:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ليلة أسرى بنى الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها وجساً (١) فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال النبي ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقية موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحياً بالنبي الأمي»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا موسى. فمضى فلقية شيخ جليل متهب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جرىء بقدرين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر غسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذي كان معه القدح: أصبت الفطرة . إسناده صحيح ولم يخرجوه (٢).

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا ثمراً وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم . وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيت فيلماً نياً أقر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كان شعر راسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق . ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى أرب منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك (٣) فسلمت عليه». ورواه النسائي وإسناده صحيح (٤).

طريق أخرى: روى البيهقي عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى سالكا خازن جهنم والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَمَ مَن لَقَانَهُ ﴿ [السجدة: ٢٣] فكَانَ قَتَادَةَ يَفْسِرُهَا: أَنْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ لَقِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. وأخرجه (٥).

طريق أخرى: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى

(١) في المطبوعة والمخطوطة الأثرية: «وخشا» والثبت من المسند .

(٢) المسند (٢٣٢٣) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» .

(٣) في المطبوعة: «أبيك» والثبت من المخطوطة والمسند .

(٤) المسند (٣٥٤٦) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» والنسائي في الكبرى (١١٤٨٤) .

(٥) البيهقي في الدلائل (٢ / ٢٨٦) والبخاري (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥ / ٢٦٦) .

بي، فأصبحت بمكة، فظلمت وعرفت أن الناس مكذبي، فقدمت معتزلاً حزيناً، فمرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال: «إني أسرى بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرايت إن دعوت قومك أمحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانقضت إليه للجالس وجأوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسرى بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضح يده على رأسه متمجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تتعت لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد؟ فقال رسول الله ﷺ: «فما رلت أتعت حتى التيس على بعض النعت» قال: «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فنعتته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه. واخرجه النسائي ورواه البيهقي (١).

رواية عبد الله بن مسعود:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فانتهى إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها يتهى ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها يتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَفْشَى الْبَدْرُ مَا يَفْشَى﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحّمات، يعنى الكبائر. ورواه مسلم (٢). ثم قال البيهقي: «وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي زر، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلأ دون ذكرهما» (٣)، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم. والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل كان يعلمهم بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا أعلم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا أعلم لى بها، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: ما أوجيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيان، فإذا رأيتى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فيهلكه الله إذا رأيتى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال فاقته». قال: «فيهلكهم الله،

(١) المسند (٢٨٢٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح»، والنسائي فى الكبرى (١١٢٥٨)، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦٣).

(٢) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٢) ومسلم (١٧٣ / ٢٧٩).

(٣) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٣).

ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال « فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطوون بلادهم ، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يبرون على ماء إلا شربوه » قال : « ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم . فادعو الله عليهم ، فيهلكهم ويميتهم حتى تمحوى الأرض من نتن ريحهم - أى : نتن » قال : « فينزل الله المطر ، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر . فقيما عهد إلى ربى : أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتيم ، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ، ليلاً أو نهاراً » وأخرجه ابن ماجه (١) .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حين أسرى بى لقيت موسى » قال : فنعته فإذا رجل - مضطرب ، رجُل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة . قال : « ولقيت عيسى » - فنعته النبى ﷺ قال : « ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس » يعنى حمام . قال : « ولقيت إبراهيم ، وأنا أشبه ولده به » . قال : « وآتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر ، قيل لى : خذ أيهما شئت ، فأخذت اللبن ، فشربت ، فقيل لى : هديت الفطرة - أو : أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت امتك » (٢) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه ، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى ، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم ، فلما فرغت قال قائل : يا محمد ، هذا مالك خارن جهنم ، فالتفت إليه فبدانى بالسلام » (٣) .

رواية عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها :

روى البيهقى عن عائشة ، قالت : لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى ، أصبح يحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا أسنوا به وصدقوه ، وسموا بذلك إلى أبى بكر ، فقالوا : هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ! فقال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : فنصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إنى لأصدقته فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقته فى خير السماء فى غُدوة أو رَوْحة . فلذلك سُمى أبو بكر : الصديق (٤) .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث ، صحيحها وحسنها ، فحصل مضمون ما

(١) المستد (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١) ، وفى الزوائد : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

قلت : وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر ، ثم قال : « والحديث ذكره ابن كثير فى التفسير (٥ / ١٣٠) عند هذا الموضع ، ووقع فى التفسير بديل « موثر بن عفارة » « مرتد بن جنادة » ، وهو تحريف عجيب من الناسخين ، وليس فى الرواة المترجمين من يسمى بهذا » .

(٢) البخارى (٣٣٩٤) ومسلم (١٦٨ / ٢٧٢) . (٣) مسلم (١٧٢ / ٢٧٨) .

(٤) دلائل النبوة (٢ / ٣٦٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣ / ٦٢) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبى .

اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أذانه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جازئ على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرارات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام، أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لآخبر النبي ﷺ به أمته، ولتقله الناس على التعدد والتكرار. قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكنا قال عروة. وقال السدي: ستة عشر شهراً.

والحق: أنه، عليه السلام، أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج - وهو كالمسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاور منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، واللوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رزقاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولفظاً بعباده. وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقدمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عرض الآية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادِم، والله أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء يبذنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسرى ببذنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقه لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. وقد تعقبه ابن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، والله أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فاجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسما بنت أبي بكر الصديق، رضى الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَلْبَسُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ﴿١﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَ عِبْدًا شُكُورًا ﴿٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرون بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَلْبَسُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهيج وتنبه على المنة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شُكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها». وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي^(١). وقال مالك، عن زيد بن

(١) المسند (٣ / ١١٧) ومسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) والترمذي (١٨١٦) والنسائي في الكبرى (٦٨٩٩).

اسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد روى البخارى عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال: «انا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، انك انت اول الرسل الى اهل الارض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا الى ربك» وذكر الحديث بكماله (١).

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَاتَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوًّا تَبَرَّيْنَا ﴿٧﴾ عَسَىٰ يَظُنُّ أَن يَرْجِعَ وَإِن يُعَدِّتُمْ عَدَدًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى انه قضى الى بنى اسرائيل فى الكتاب، اى: تقدم اليهم واخبرهم فى الكتاب الذى انزله عليهم انهم سيفسدون فى الارض مرتين ويعلمون علواً كبيراً، اى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦] اى: تقدمنا اليه واخبرناه بذلك واعلمناه به. وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ اى: اولى الافسادتين ﴿بَعْثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأَسْرٍ شَدِيدٍ﴾ اى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا اولى باس شديد، اى: قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ اى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، اى: بينها ووسطها، واتصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون احداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المصلطين عليهم: من هم ؟ فمن ابن عباس وقتادة: انه جالوت الجزرى وجنوده، سلط عليهم اولاً، ثم اديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير: انه ملك الموصل سنجارب وجنوده. وعنه ايضاً، وعن غيره: انه بختنصر ملك بابل. وقد اخبر الله عنهم انهم لما بغوا وطفخوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم واذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فانهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الانبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: ظهر بختنصر على الشام، فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم اتى دمشق فقتل سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم (٢). وهذا صحيح الى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وانه قتل اشرافهم وعلماهم، حتى انه لم يبق من يحفظ التوراة، واخذ معه منهم خلقاً كثيراً اسرى من ابناء الانبياء وغيرهم، وجرت امور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح او ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله اعلم .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ اى: فعليتها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿ إِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى: الكرة الآخرة ، أى: إذا أفدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيُسْوَوا وَجوهكم ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أى بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيَتَّبِعُوا ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿ مَا عُلُوا ﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿ قَتِيرًا . عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِن عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال ، ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه . وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل ، فسلط الله عليهم هذا الحى ، محمداً ﷺ وأصحابه ، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدَىٰ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

بمدح تعالى كتابه العزيز الذى انزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن ، بأنه يهدى لاقوم الطرق ، وأوضح السبل ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ على مقتضاه ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة ان ﴿ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى: يوم القيامة ، كما قال تعالى: ﴿ قَبَسْنَاهُمْ بَعْدَآبِئِهِمْ ﴾ [آل عمران: ٢١] .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالَسْرَةِ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿ بِالْشَّرِّ ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ الآية [يونس: ١١] ، وكذا فرسه ابن عباس ، ومجاهد ، وقاتدة ، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحْوَرًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّيَتَّبِعُوا فِضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

يمتق تعالى على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ، ليسكنوا فى الليل ويتشروا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضى الأجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَتَّبِعُوا فِضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: فى معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَعْضُهُمْ أَلَّا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلْبِلٌ لَّا تُكَلِّمُونَ فِيهِ أَلَّا تَصْهَرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١- ٧٣] ، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّبِينًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حُلُوفًا لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١ ، ٦٢] ، وقال

تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاللَّيْلِ إِسْوَاحٌ وَجَاعِلُ (١) اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الانعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَيُّهَا لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهى النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِندَ السَّبْتِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَّاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]. قال عبد الله بن كثير فى كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذى فى القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذى فى القمر. وقد روى ابن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوّاء سأل على بن أبى طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التى فى القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه. وقال قتادة فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذى فيه، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أى: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، عز وجل.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَ يَوْمٍ فِي عَتَقِهِ. وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَتَقِهِ﴾ وطائرته: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَمِيدًا. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ. يَحْفَظُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أى: يجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنْشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يَتَّبِعُ الْإِنْسَانَ يَوْفِعِدَّ بِمَا فَعَلَ وَأَخْرَجَ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةً. وَلَوْ أَلْفَىٰ

(١) وهكذا قرأها الحافظ ابن كثير، كما فى المخطوطة، وهى قراءة يعقوب وأهل المدينة وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحزمة والكسائى: «جعل» وفى المطبوعة: «جعل» وهو محرف.

مَعَاذِيرُهُ [القيامة : ١٣ - ١٥] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۗ أَىٰ : إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : ﴿ أَلْزَمْنَا طَائِرَهُ فِي عَنُقِهِ ۗ ﴾ إما ذكر العنق ؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه . وروى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر عن النبي ﷺ قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : ياربنا ، عبدك فلان ، قد حسبته ؟ فيقول الرب جل جلاله : ائتموا له على مثل عمله ، حتى ييرا أو يموت . » إسناده جيد قوى ، ولم يخرجوا (١) . وعن قتادة : ﴿ أَلْزَمْنَا طَائِرَهُ فِي عَنُقِهِ ۗ ﴾ قال : عمله ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿ كِتَابًا يُلْقَاهُ مَنشُورًا ۗ ﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصرى ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۗ ﴾ [ق : ١٧] يا بن آدم ، بسطت لك صحيفتك ، ووكل بك ملكان كرميان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فأعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ أَفَرَأَى كِتَابَكَ ۗ ﴾ الآية ، فقد عدل - والله - من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَن آهَتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن صَدَّ فَإِنَّمَا يَصُدُّ عَنَّا وَلَا نُرِزُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۗ ﴾

يخير تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ وَمَن صَدَّ ﴾ أى : عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه . ثم قال : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ﴾ أى : لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا ۗ ﴾ [فاطر : ١٨] .

ولا سفاة بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ وَلا يَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۗ ﴾ [التكوير : ١٣] ، وقوله : ﴿ وَمَن أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ [النحل : ٢٥] ، فإن الدعاء عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحملوا عنهم شيئاً . وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۗ ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى : ﴿ كَلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فُجْرًا سَأَلْتَهُم خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۗ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۗ ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] ، وكذا قوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۗ ﴾ [الزمر : ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ رَّجَاءَكُمْ النَّذِيرِ فَذُوقُوا فَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ نُصَبِهِ ﴿ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿ إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٦] عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ » ثلاثاً ، وذكر تمام الحديث ^(١). فهذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجّة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: « تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهناك تمتلئ ويتزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً » ^(٢).

بقى هنا مسألة قد اختلف الأئمة ، رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وأبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفترة ولم يبلغه الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث ، فروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع ، أن نبى الله ﷺ قال: « أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرّم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى بالبعر ، وأما الهرّم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما اعقل شيئاً، وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ موافقهم ليُطِيعَنَّهُ فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » ^(٣).

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودّانه أو ينصرّانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » وفى رواية : قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » ^(٤). وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل، أنه قال: « إني خلقت عبادى حنفاء » ^(٥).

وروى الإمام أحمد ، عن حسناء ^(٦) بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يا رسول الله، من فى الجنة ؟ قال: « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة، والوئيد فى الجنة » ^(٧).

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث

(١) البخارى (٧٤٤٩) .

(٢) المسند (٤ / ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) .

(٤) البخارى (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٥) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٦) المسند (٥ / ٤٠٩) ، وقال ابن حجر فى الفتوح (٣ / ٢٤٦) : « إسناده حسن » .

(٧) البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦ / ٣٥) .

سَمْرَةَ بن جندب في صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا: يارسول الله ، وأولاد المشركين؟ قال «نعم» ، وأولاد المشركين ﴿١﴾ . ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام : «هم مع آبائهم» ﴿٢﴾ . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ والنقاد.

فصل: وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفراء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة . وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع به إن شاء الله، عز وجل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ﴿١٦﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أمرنا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَنَاهَا أَمْرُنَا لِيَلْأَ أَرْهَابًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناها: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناها: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة . قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناها: جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء على قراءة من قرأ ﴿أمرنا مترفيها﴾ قال ابن عباس قوله: ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يقول: سلطنا أشرارها فمضوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال مجاهد والربيع بن أنس. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة ، وعن مالك عن الزهري: ﴿أمرنا بمترفيها﴾: أكثرنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، ففقتوكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية

سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات فإنه قال: ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ أى: فى الآخرة ﴿بصلاها﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مذمومًا﴾ أى: فى حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مدحورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (١).

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وسعى لها سعيها﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وهو مؤمن﴾ أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿فأولئك كان سعيهم مشكورًا﴾ .

﴿ كَلَّا تَبْدُؤُا هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، ثم هم فيما هم فيه ﴿من عطاء ربك﴾ أى: هو التصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى: لا يمنعه أحد ولا يردعه راد. قال قتادة: ﴿مَحْظُورًا﴾ أى: منقوصاً. وقال الحسن وغيره: بمنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أى: فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك، والحسن والقيبح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدرجات فى جهنم وسلسلها وأغللالها، ومنهم من يكون فى الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفى الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء» (٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى - والمراد المكلفون من الأمة- لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً ﴿تقعد﴾

(١) المسند (٦ / ٧١) وقال الهيشى فى الزوائد (١٠ / ٢٩١): «رجال رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة» .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٦٩) من سورة النساء .

مذمومًا ﴿ على إشراكك به ﴾ ﴿مُخَذَّلًا﴾ لان الرب تعالى لا يتشارك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لان مالك الضر والنفع هو الله وحده لاشريك له. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى، إما أجلاً وإما عاجلاً». ورواه أبو داود، والترمذى، وقال : حسن صحيح غريب (١).

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٤﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لاشريك له؛ فإن القضاء هنا بمعنى الأمر. قال مجاهد : ﴿وقضى﴾ يعنى : وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال : ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أى : وأمر بالوالدين إحساناً ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ﴾ أى : لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَهْرَهْمَا﴾ أى : ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء فى قوله : ﴿وَلَا تَهْرَهْمَا﴾ أى : لا تنفض يدك عليهما.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال : ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى : ليتاً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى : تواضع لهما بملكك ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أى : فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾. قال ابن عباس : ثم أنزل الله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُثْهَرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَفْزَرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]. وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «رغم أنف، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة». ورواه مسلم (٢).

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿١٦﴾﴾

قال سعيد بن جبيرة : هو الرجل تكون منه الباردة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفى رواية : لا يريد إلا الخير بذلك - فقال : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ﴾. وقوله : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس : المسيحين . وفى رواية عنه : المطيعين المحسنين . وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين . وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وقال سعيد بن المسيب فى قوله : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ قال : الذين يصيرون الذنب ثم الذنب ثم يتوبون، ويصيرون الذنب ثم يتوبون . وكذا رواه ابن جرير عن ابن المسيب، به . وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبيرة ومجاهد : هم الراجعون إلى الخير . وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية : هو

(١) المسند (٣٨٦٩) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» وأبو داود (١٦٤٥) والترمذى (٢٣٢٦) .

(٢) المسند (٢ / ٣٦٤) ومسلم (٩ / ٢٥٥١) .

الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها. وواقفه مجاهد فى ذلك . وقال عبد الرزاق عن عبيد ابن عمير، فى قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

قال ابن جرير: والاولى فى ذلك قول من قال: هو الثائب من الذنوب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه . وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال : « آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون » (١).

﴿ وَعَاتِذَا الْقُرْتَبَىٰ فَحَقَّ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ بَدِيرًا ﴿٦٧﴾ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٦٨﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٦٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الارحام . وفى الحديث : « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه » (٢) .

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا ..

قوله : ﴿ وَلَا تُبْدِرْ تَبْدِيرًا ﴾ لما أمر بالإففاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] .

ثم قال متفرغاً عن التبذير والسرف: ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: أشباههم فى ذلك . وقال ابن مسعود: التبذير: الإففاق فى غير حق ، وكذا قال ابن عباس . وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً فى غير حقه كان مبذراً . وقال قتادة: التبذير: النفقة فى معصية الله تعالى، وفى غير الحق والفساد . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » . فقال: يا رسول الله، أقلل لى ؟ فقال : ﴿ وَآتِذَا الْقُرْتَبَىٰ فَحَقَّ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ تَبْدِيرًا ﴾ . فقال: حسى يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها » (٣) .

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ أى: جحوداً ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته ؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته . وقوله: ﴿ وَإِنَّمَا تَعْرِضُ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أى: إذا سألك أقربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا

(٢) البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧ / ٢٦) .

(١) البخارى (١٧٩٧) .

(٣) المسند (٣ / ١٣٦) ، وقال الهيمى فى الزوائد (٣ / ٦٦) : « رجاله رجال الصحيح » .

مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ أَي: عَدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانُوا بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً بالاعتقاد في العيش ذاماً للبخل ناهياً عن السرف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكن بخيلاً ممنوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً. ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التي قد عجزت عن المسير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤] أي: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم. وقد جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من تديهما إلى تراقيهما. فاما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على جلده، حتى تُخفى بانه وتغفو أثره. واما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسمها فلا تسع» (١). وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى قيوعى الله عليك، ولا توكى فيوكى الله عليك» وفي لفظ: «ولا تُحصى فيحصى الله عليك» (٢). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله قال لى: أنفق أنفق عليك» (٣). وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط مسكماً تلفاً» (٤).

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغنى من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استلراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ مَّن تَرْتُفَهُمْ وَإِنَّا كَرِهْنَا لَأَن تَقْتُلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابته لتلا تكثر عيته، فهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أي: خوف

(٢) البخارى (١٤٣٣) ومسلم (١٠٢٩ / ٨٨) .

(١) البخارى (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١ / ٧٦) .

(٤) البخارى (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠ / ٥٧) .

(٣) مسلم (٩٩٣ / ٣٧) .

أن تفكروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿ثُمَّ نَزَّزْنَاكُمْ فِي آيَاتِهِ﴾ وفي الانعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: من فقر ﴿ثُمَّ نَزَّزْنَاكُمْ فِي آيَاتِهِ﴾ [الانعام: ١٥١].

وقوله: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ حَقًّا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كَانَ حَقًّا كَبِيرًا» وهو بمعناه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك» (١).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتة، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقاً ومسلماً.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اتذنب لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «اذنه». فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لامك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لامهاتهم». قال: «أفتحبه لابتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أتحبه لاختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لآخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبي، وطهر قلبه، واحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (٢).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ

فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني للمحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٣). وفي السنن: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم» (٤).

وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقول تعالى: ﴿فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير

(١) البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦ / ١٤١).

(٢) المسند (٥ / ٢٥٧)، ورواه الطبراني في الكبير (٨ / ١٩٠) (٧٦٧٩)، وقال الهيثمي في الزوائد (١ / ١٣٢): «رجاله رجال الصحيح».

(٣) البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦ / ٢٥).

(٤) الترمذي (١٣٩٥)، وقال: «وعذا أصح من حديث ابن عدي»، والنسائي (٣٩٨٦)، وصححه الألباني.

القاتل ﴿إِنَّهُ كَانَ مُنْصَوِّراً﴾ أى أن الولي منصور على القاتل شرعاً، وقدراً .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولاً ﴿٦٦﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقَطَارِسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِسْرَافًا وَبِدْلَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْفُفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦٦]، وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول الله ﷺ قال لابى ذر: «يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»^(١) . وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ أى: عنه. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿وَوَزَنُوا بِالْقَطَارِسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقراطس وهو الميزان. قال مجاهد: هو العدل بالرومية ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٦٨﴾﴾

قال ابن عباس: يقول: لا تقل ، وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»^(٢) .

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، و عما عمل فيها .

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمَأً إِنَّكَ لَنْ تُعْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٦٩﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى تاهياً عباده عن التجبر والتبختر فى المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمَأً﴾ أى: متبخترًا متمايلاً مشى الجبارين ﴿إِنَّكَ لَنْ تُعْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده . كما ثبت فى الصحيح: «بيننا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُردان يتبختر فيهما إذ خُصِفَ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» . وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زنته ، وأن الله تعالى خسف به وبيداره الأرض .

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ معناه : كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ﴾

(٢) البخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣ / ٢٨) .

(١) مسلم (١٨٢٦ / ١٧) .

(٣) البخارى (٥٧٩٠) ومسلم (٢٠٨٨ / ٥٠) .

رَبُّكَ الْأَتَّصِدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿٣٩﴾ إِلَى ههنا فسئته، أى: ففحيحه مكروهه عند الله.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، بما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿مَدْحُورًا﴾ أى: مبعدا من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه ﷺ معصوم.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادَّعوا أنهم بناتُ الله، ثم عبدوهم فأخطوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: خصصكم بالذكر ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات ؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أى: فى زعمكم أن الله ولدنا، ثم جعلكم ولده الإناث التى تأنفون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالواد، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْصَرِفْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجْرُ الْأَجَالُ هَذَا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٤٢﴾﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ، فيترجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أى: من الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا

كَبِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتفنون إليه الوسيلة والقرية، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى من ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقُدسها فقال: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أى: تعالىاً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له

كُفُوا أَحَدٌ .

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَدِيثِهِ . وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والارض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته والهيته .

فَقَى كُلَّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَخَطَّوْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرُّحْمَنِ وَلَدًا ﴾

[مریم: ٩٠ - ٩١]

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَدِيثِهِ﴾ أى: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم . وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل^(١). وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أى: أنه لا يعاجل من عصاه بالمعوية، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء فى الصحيحين: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتِهِ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [هود: ١٠٢-١٠٣]^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظَلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ الآية [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال فى آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى ان قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ إلى آخر السورة [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿٤٥﴾
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْأَ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: «إِذَا قَرَأْتَ - يامحمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورا». قال قتادة، وابن زيد: هو الاكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُوا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥٥] أى: مانع حائل أن يصل إلينا بما تقول شىء .

وقوله: ﴿حِجَابًا مُسْتُورًا﴾ أى: بمعنى ساتر، وقيل: مستورا عن الابصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أسماء بنت أبى بكر، قالت: لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة السد] جاءت العوراء أم

جميل ولها ولوكة، وفي يدها فِهْرٌ وهي تقول: مُدْمَمًا أتينا - أو: أيننا - ودينه قَلِيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتمصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجأك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أنى بنت سيدها (١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ كِتَابًا﴾: وهي جمع «كتان»، الذى يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لتلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذى يمنهم من سماع القرآن سماعاً يفهمهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرْتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُوا﴾ أى: إذا وحَّدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ أُمَّةٌ﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَانِهِمْ نَفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ قَوْمِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سرًا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرقة، أى: إن تتبعون - إن اتبعتم محمدًا - «إلا بشرًا» يأكل ويشرب، وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رنى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه، ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال ابن إسحاق: حدثني ابن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لا وقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى تتعاهد لا تعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رايك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُرادُ بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يرادُ بها. قال الأحنس : وأنا والذي حلفت به . قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رايك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: اطعموا فاطمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فاعطينا، حتى إذا تخامينا على الركب، وكنا كقرسى رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نترك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأحنس وتركه.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرِفْنَا أَوْ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٥١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٢﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُبِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٣﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودِهِ وَيَتَلَفَتُونَ أَن لَّيْسَ لَهُمْ قَرِيبًا ﴿٥٤﴾ قَلِيلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرِفْنَا﴾ أي: تراباً، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: غباراً ﴿أَوْ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا نُحْرَقُ . قَالُوا تِلْكَ إِذْ كَرَّةٌ خَاصِرَةٌ ﴿٥١﴾﴾ [التارعات: ١٠-١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرْبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وعن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتي لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ. وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُبِيدُنَا﴾ أي: من يبئنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقاً آخر شديدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تتشرون؛ فإنه قادر على إعادةكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية (الروم: ٢٧). وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخَالَف ولا يُمَاتَع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالصَّبْرِ﴾ [القمم: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿فَمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [التارعات: ١٣، ١٤] أي: إنما هو امر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جرير. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقوله: ﴿وَتَقْتُلُونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكقوله تعالى ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ بُرُوتِهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [التارعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْتَضِرُ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ أَلْهَمُنَا هَذِهِ أَمْ أَنْتُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدُدٌ سَعِينٌ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَامْسَلِبُ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

﴿وَقُلْ لِيَعْلَمِ الْقَوْلِيُّ الْقَوْلِيُّ أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

مُبِينًا﴾

يامر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يامر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الاحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إذ لم يفعلوا ذلك، نزع الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديده، فإن الشيطان يتزعج في يده، أي: فرجا أصابه بها. وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن يتزعج في يده، فيقع في حفرة من النار». أخرجاه.

﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ

بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآيَاتِنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأُ يَرْحَمَكُمُ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد

(١) المسند (٢ / ٣١٧) والبخارى (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧ / ١٦٦).

(٢) البخارى (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣ / ١٥٩).

التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَأُذِخْنَا مِنَ النَّيِّبِ مِثْلَهُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليه السلام على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ تبييه على فضله وشرفه. روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «خُفِّ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتَسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَعَ». يعنى القرآن^(١).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا يَحْوِيَلًا ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أى: بالكلية ﴿وَلَا يَحْوِيَلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر. قال ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسبح وعزيراً، وهم الذين يدهون، يعنى الملائكة والمسبح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية. روى البخارى عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم^(٢). وقال ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرأ من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والوسيلة هى القرية، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهى، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿ وَإِنَّ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِسْمَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ ﴿٥٨﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبئد أهلها جميعهم أو يعذبهم «عذاباً شديداً» إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿ وَمَا ظَلَمْتُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿ فَلَدَّاتْ بِهَالِ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨].

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْجِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ ﴿٥٩﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذعباً، وأن ينحى الجبال عنهم فيزدعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيمهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال: «لا، بل استأني بهم». وانزل الله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْجِرَةً ﴾. [رواه النسائي (١)].

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ أى: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سألك قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى فى المائدة: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَسَنُكَفِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنِّي أَغْدِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَدِيثِ أَعْدَاءً ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عتوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ أى: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أجيب دعاءه فيها ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى: كفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. وكذا قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد غير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيحَ الَّتِي أَرِيَنَّكَ إِلَّا إِسْخَةَ لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَإِن يَخُوفُوكُمْ فَكَمَا يَبْزُدُهُمْ إِلَّا لَاطِقِينَ كَذِبًا ﴾ ﴿٦٠﴾

(١) المسند (٢٣٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والنسائي فى الكبرى (١١٢٩٠).

(٢) البخارى (١٠٤٤) ومسلم (١/٩٠١).

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلته. قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وغيرهم في قوله : ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أى : عصمك منهم.

وقوله : ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أرى لك إلا آية للناس﴾ روى البخارى عن ابن عباس : ﴿وما جعلنا للرؤيا التي أرى لك إلا آية للناس﴾ قال : هي رؤيا عين أراها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم^(١). وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة ، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق ؛ لأنه سم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وبقينا لأخرين ؛ ولهذا قال : ﴿إلا آية﴾ أى : اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما حكى ذلك ابن عباس.

وقوله : ﴿ونعوقهم﴾ أى : الكفار بالوعيد والمذاب والنكال ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ أى : تمادياً فيسأهم فيه من الكفر والضلال . وذلك من خذلان الله لهم .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْسِنَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾

يذكر تعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، وذريته، وانها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قَالَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقال أيضاً : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْسِنَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قال ابن عباس : يقول لآستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد : لاحتوين . وقال ابن زيد : لأصلنهم . كلها متقاربة، والمعنى : أنه يقول : أرايتك هذا الذى شرفته وعظمته على، لئن أنظرتنى لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم !

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْطَفَّتْ وَنْتُمْ بِصَوْتِكُمْ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكُمْ وَرَجِلِكُمْ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَبْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوراً ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له : ﴿أذهب﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى قال : ﴿فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [الحجر : ٣٧ ، ٣٨] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ أى : على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ قال مجاهد : وافراً . وقال قتادة : موفوراً عليكم، لا ينقص لكم منه .

وقوله : ﴿وأستفز من استطفت منهم بصوتك﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهم والغناء، أى : استخفهم بذلك . وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية الله، عز وجل، واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿وأجلب عليهم بخبرك ورجلك﴾ يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل»

جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب». ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قلبي، كما قال تعالى: ﴿أَنْتُمْ تَرَانَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمًا لَّآئِمًّا﴾ [مریم: ٨٣] أي: تزعمهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَبَلِكُمْ وَرُجْلِكُمْ﴾ قال: كل راكب وماش في معصية الله. تقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهي ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْتُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: أما مشاركته إياهم في أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعني: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقاتدة. قال ابن جرير: والاولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال مجاهد، والضحاك: يعني أولاد الزنا. وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصري: قد والله شاركتهم في الأموال والأولاد مَجَسُوا وهودوا وَفَسَّرُوا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وَجَزَّوْا من أموالهم جزءاً للشياطين. قال ابن جرير: واولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخص بقوله: ﴿وَشَارِكْتُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، وأطيع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله متجه، وكل من السلف فسر بعض المشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَمْت عليهم ما أحللت لهم^(١)». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقتر بينهما ولد في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً^(٢)».

وقوله تعالى: ﴿وَعِدَّتُهُمْ وَوَعْدَتْهُمْ الشَّيْطَانُ الْأَغْرُورُ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا ححصن الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدَّتْكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَىٰ بَرَبَكَ وَكَيْلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هنا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا تَجَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ﴿٦٧﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضررٌ، دعوه متبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يفتى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك على عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضمن يدي فى يد محمد، فلا جدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ما عرفتكم من توحيدِه فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سحيتَه هذا، ينسى النعم ويجهدها، إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴾ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمتمت من انتقامه وعذابه! ﴿أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذى فيه حجارة . قاله مجاهد ، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَخَرٍ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [القم: ٢٤، ٢٥] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ﴾ (١) [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَاءَ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ تَذِيرٌ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] .

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَعِيلًا يَذَّبُكُمْ ﴾ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر ، وخرجوا إلى البر ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى ويغرق المراكب . قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها . وقوله: ﴿فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم واعراضكم عن الله تعالى . ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَعِيلًا يَذَّبُكُمْ﴾ قال ابن عباس: نصيراً ، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أى: يأخذ بثأركم بعدكم .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجله، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بغمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله ويتفهم به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي أَرْحَامِ آبَائِهِمْ﴾ أى: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفى ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَوَضَعْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم والبان، من سائر أنواع الطعوم والالوان، المشتهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها والوانها وأشكالها، مما يصنعونه لانفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَوَضَعْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هُدًى فَمَنْ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٣﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: انه يحاسب كل أمة بإمامهم . وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم . وهذا كقوله: : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لان إمامهم النبى ﷺ . وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من الشريعة . واختاره ابن جرير، وعن مجاهد انه قال: بكتبهم . فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك . وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ويحتمل أن المراد بإمامهم: أى كل قوم بمن يأتمون به، فاهل الإيمان اتسموا بالانبياء عليهم السلام، وأهل الكفر اتسموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ . وفى الصحيحين: «لتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث (١).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجنات: ٢٨، ٢٩].

وهذا لا ينافى أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمة، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَةُ﴾، الزمر: ١٦٩. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُمَّةٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْقَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أى: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته . كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَمَّ

أَفْرُؤُوا كِتَابِيهِ ﴿٧٣﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلاً﴾ قد تقدم أن «القتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: أى: فى الحياة الدنيا «اعْمَنَ» عن حجج الله وآياته وبيناته «فَهُوَ فِي الآخِرَةِ اعْمَنَ» أى: كذلك يكون «وَاضِلٌ سَبِيلاً» أى: واضل منه كما كان فى الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٤﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَزُكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٧٥﴾ إِذَا لَأَدْفَنَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفوره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، فى مشارق الأرض ومغاربها.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَسُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٧﴾ سُنَّتَهُ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٨﴾﴾

نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدى على غير ميعاد، فامكنه منهم وسلطه عليهم وأظفروه بهم، فقتل أشرفهم، وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّتَهُ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أى: هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسولنا وأذوهم: بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب. ولولا أنه رسول الرحمة، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴿٧٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴿٨٠﴾﴾

يقول تبارك تعالى لرسوله ﷺ أسراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ عن ابن عباس: «ذلولها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك فى تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بزة الأسلمى وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. واختاره ابن جرير.

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله:

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر. وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله تفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: « تشهد ملائكة الليل، وملائكة النهار». ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح^(٢). وفي لفظ في الصحيحين عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: اتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون^(٣)».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: « صلاة الليل^(٤)». ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه، ولله الحمد والمنة. واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه: أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجمعوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. وهو أحد قولى الشافعى، واختاره ابن جرير. وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته التوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد.

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَخْتَلَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْشُودًا﴾ أى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمتك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم. قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث ركباً إلى المحشر، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله لياتى لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها،

(١) البخارى (٤٧١٧).

(٢) المسند (٢ / ٤٧٤) والترمذى (٣١٣٥) والنسائى فى الكبرى (١١٢٩٣) وابن ماجه (٦٧٠).

(٣) البخارى (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠).

(٤) مسلم (١١٦٣ / ٢٠٢).

انا لها * كما ستذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضوع، إن شاء الله تعالى . ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها . وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأتمته . وهو أول شفيع فى الجنة، كما ثبت فى صحيح مسلم . وفى حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته . وهو أول داخل إليها وأتمه قبل الأمم كلهم . ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم . وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة ، لا تليق إلا له . وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك . وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص، ولله الحمد والمنة .

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود، وباللّٰه المستعان:

روى البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يعثه الله مقاماً محموداً (١)

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة» . انفرده به دون مسلم (٢)

وروى الإمام أحمد عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن اتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمداً عبداً عُفِّرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف: «فأقوم فأمشى بين سِماطين من المؤمنين» . قال أنس: «حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعَلِّمْنِيهِ، ثم اشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمْنِيهِ، ثم اشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي،

فيدعني ماشاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل بسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن. فحدثنا انس بن مالك أن النبي ﷺ قال: « فيخرج من النار من قال: لا إله إلا الله » وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: « لا إله إلا الله » وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: « لا إله إلا الله » وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة. أخرجاه^(١).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة، ثم قال: « أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسممهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنون الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فصعبته، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: ياموسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على المرسلين، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يامحمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخره اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتى تحت العرش، فاقع ساجداً لربي، عز وجل، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يامحمد، لرفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: أمتى

(١) المسند (٣ / ١١٦) والبخارى (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣ / ٣٢٢).

يارب، أمي يارب أمي، يارب، فيقال: يامحمد، أدخل من أمك من لأحساب عليه من الباب الايمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: «والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجْر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه في الصحيحين (١).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع، وأول مُشْفَع» (٢).

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبٰطِلُ إِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴿٣﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فانزل الله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾. وقال الترمذي: حسن صحيح (٣). وقال قتادة: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ يعني: المدينة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وهو اختيار ابن جرير

وقوله: ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه ليتزعم منك فارس، وعز فارس، وليجعل له، وملك الروم، وعز الروم. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ عنم الأ طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولقراض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم، على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: ﴿سلطاناً نصيراً﴾: حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقاتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلاً بالنبات﴾ إلى قوله: ﴿وأنتنآ العنديد﴾ الآية [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، فيما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل﴾ الآية: تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قيل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا يثبت له مع الحق ولا بقاء ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الانبيا: ١٨] وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْب، فجعل يطعنهما يعود في يده، ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾، ﴿جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾ [سبا: ٤٩]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي (٤).

(١) السند (٢ / ٤٣٥) والبخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤ / ٣٢٧). (٢) مسلم (٣ / ٢٢٧٨).

(٣) السند (١٩٤٨) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح»، والترمذي (٣١٣٩).

(٤) البخاري (٤٧٢٠، ٢٤٧٨، ٤٢٨٧) ومسلم (١٧٨١ / ٨٧) والترمذي (٣١٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٢٩٧).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن - إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وريغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آفَاتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَسَىٰ أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا مَوْزِعَةً مِّنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّمَا زَادَتْنَا هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك كثيرة. قال قتادة فى قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إنه لا يتنفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ . فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى فى حالتي السراء والضراء فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ قال مجاهد: بُعد عنا .

قلت : وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّيْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتَ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ أى: قنط أن يمود يحصل له بعد ذلك خير ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّزَّ أَذْقَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّنْهُ لَيَقُولُنَّ فَبِئْسَ الْتَقَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ الآية [هود: ١٢١]؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أى: منا ومنكم، سيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَنَسْتَلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : كنت أمشى مع النبي ﷺ فى حرت المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، وقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على

العيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَسَأَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخارى ومسلم (١).

وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَسَأَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسال عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَسَأَلُونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ لَأَنزَلْنَا الْكِتَابَ فِي الْبَحْرِ مِمَّا كَانَتْ عَلَى السَّيِّمَاتِ الْمَاجِرَاتِ وَالْبَحْرُ الْيَمُّ الْمَغْلُوبُ﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] (٢). وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال: أحدها: أن المراد: أرواح بنى آدم. وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة. وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شأنه، وما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشئ من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أن علمكم فى علم الله قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرر أن الروح التى يتفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مُصْطَرَّاً أو خمرأ، ولا يقال له: «ماء» حيثذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس إلا باعتبار ما تزول إليه. فحاصل ما نقول: إن الروح هى أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح.

﴿وَلَمَّا سَأَلْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَمْ يَجِدْ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكَيْلًا ﴿١٢٥﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿١٢٦﴾ قُلْ لِمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٢٨﴾﴾

(١) المنذ (٣٦٨٨) والبخارى (١٢٥) ، (٧٤٦٢) ومسلم (٢٧٩٤/ ٣٢) .

(٢) المنذ (٢٣٠٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

يذكر تعالى نعمته وقضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم نيه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، وانفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، للذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له!؟

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية، أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَنى أَكْفَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي: جحوداً ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ خَيْبٍ وَعَسَىٰ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا إِسْهَافًا أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُةً كَمَا كُنَّا نُقْرَؤُكُمْ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٢﴾

قال ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا اليخترى أبا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وثبيته ومثبها ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشدَهم، ويعز عليه عَثَمُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسقمت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نعذرَ فيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم رسولا، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن قبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لامر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليمًا.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلداً، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليبر

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وأيسبُط لنا بلادنا، ولْيَفَجِّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضي من آباءنا ، وليكن فيمن يُبعث لنا قُصَى بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسالهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقتناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصير لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جنائنا، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتبس المعاش كما نلتمه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك» . فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسالك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع في ذلك بنا، إذا لم تقبل منك ما جئنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة، يقال له: الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول . وإيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً لما فاتته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبعدهم إياه . وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لاجبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقبل للرسول : إن شئت أعطيتهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك عند قوله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

الأولون وآتينا ثمود الناقة بصيرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴿الإسراء: ٥٩﴾. وقال تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً. أو يلقى إليه كثر أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تبصرون إلا رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً. تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً. بل كذبوا بالساعة وأخذنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ [الفرقان: ١١-٧].

وقوله تعالى: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيوناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولا جابهم إلى جميع ما سألوهم وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أو تسقط السماء كما زعمت﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهدى، وتدل أطرافها، فمجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي: قطعاً، كقولهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقيهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله بن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وانا ب إلى الله عز وجل.

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقادة: هو الذهب. ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ولن يؤمن لربك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصيح موضوعة عند رأسه. وقوله تعالى: ﴿سبحان ربّي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم ابلغكم رسالات ربّي وانصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل.

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ قل لو كانت في الأرض ملكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴿﴾

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي: أكثرهم ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحى إلي رجل منهم أن أنبئ الناس وبشر الذين آمنوا﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا ابشر يهودنا﴾ [التحاثين: ٤٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أئزمن لبشر من مثلكم وقومهما لنا عابدون﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت الامم لرسولهم: ﴿إن أنعم إلا بشر مثلكم تريدون أن تصولوا لنا كأن بعد أبائنا فأتونا بسلطان مبين﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال مهنا: ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَتَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولما كتتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٦٥﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحججة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد على وعليكم، عالم بما جتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإعام والإحسان والهداية، بمن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَكَمَا وَصَّأ مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ رِذَّتُهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٦٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضل له ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يارسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يشبههم على وجوههم؛ وأخرجاه في الصحيحين^(١). وقوله: ﴿عَمِيًَّا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَكَمَا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصَّأ﴾ أي: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكما وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أخرج ما يحتاجون إليه ﴿مَا وَنَهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفتت ﴿رِذَّتُهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لها ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا لَعْنَتَ رَبِّكُمْ لِيَلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿١٦٧﴾
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي

يستحقونه؛ لانهم كذبوا ﴿بآياتنا﴾ أى: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقسروا البعث ﴿وقالوا انذا كفا عظاما ورفاتا﴾ أى: بالية نخرة ﴿اننا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ أى: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والمذهب فى الارض نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والارض، وقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس﴾ (غافر: ٥٧). وقال: ﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يخلقهم بخلقهم يقادر على أن يحيى الموتى﴾ الآية [الاحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أوليس الذى خلق السموات والارض يقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ إلى آخر السورة [يس: ٨١، ٨٣]. وقال ههنا: ﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أى: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وجعل لهم أجلا لأرب فيه﴾ أى: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلا مضروباً ومدة مقدرة لا يد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ [مرد: ١٠٤]. وقوله: ﴿فأبى الظالمون﴾ أى: بعد قيام الحجة عليهم ﴿الأكفورا﴾: إلا تمادياً فى باطلهم وضلالهم.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّم تَمَلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا محمد: لو انكم - أيها الناس - تملكون التصرف فى خزائن الله، لامسكتم خشية الإنفاق. أى الفقر، أى: خشية ان تذهبوا، مع انها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لان هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان قتورا﴾ أى: بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيراً﴾ [النساء: ٥٣] أى: لو ان لهم نصيباً فى ملك الله لما اعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نفير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً. إذا مسه الشر جزوعاً. وإذا مسه الخير منوعاً. إلا الفضلين﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء فى الصحيحين: «يد الله ملاى لا يفيضها نفقة، سحاه الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض فإنه لم يفيض ما فى يمينه» (١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّ عَلَى يَدَيْهِ إِسْرَءِيلُ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّسَبِّحًا﴾ ﴿١٠٦﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٧﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى تسع آيات بينات، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عن إرساله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد،

والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات . وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى . أى : ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ١٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مُسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تهتت كأنها جانٌ ولىّ مذبذباً ولم يعقب يا موسى لا تخف﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَسَعَ آيَاتِ رَبِّكَ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ إِتْمَانًا كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى سورة الاعراف وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخرى كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالنعيم، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرةً وجحدوا. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِضَآئِرٍ أَى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَأِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أَى: هالكا، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك : مغلوباً . والهالك يشمل هذا كله .

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَى: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْفُرُوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآيتين [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوةً على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَى : جميعاً، أَى: جميعكم أتم وعدوكم.

﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَقَرَأْنَا مَا نَزَّلْنَا لِقُرْآنٍ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّكَ﴾ ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أَى: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أَى: متضمناً علم الله الذى أراد أن يُطلعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه .

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ أَى: ونزل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُسبب بغيره، ولا زيد فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع فى الملا الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أَى: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك

من الكافرين. وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقَاهُ﴾ معناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس. ﴿لَقُرْآنَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكْتَبٍ﴾ أي: مهل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تَأْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى لئيبه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تَأْمِنُوا﴾ أي: سواء آمنتُم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كعبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابتهم وقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله، عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، أن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيماناً وتسليةً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَرِهَ تُكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمن لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الحشر: ٢٢ - ٢٤]

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ الآية، روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لئيبه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تَخَافُوهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين (١). وهكذا قال

عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: لما اثبت تعالى لنفسه الكريمة الاسماء الحسنى، نَزَّهَ نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الاحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً احد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ﴾ اى: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الاشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ﴾: لم يحالف أحدا ولم يتبع نصر احد. ﴿وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ اى: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قلت : وقد جاء فى بعض الآثار : أنها ما قرئت فى بيت فى ليلة فيصبيه سرق أو آفة . والله

أعلم.